لعبة "الرفض" الخاسرة

التي لم تعد، على أحدٍ تنطلي..

ماذا يريد هذا الذي يصرخ في حواري وازقة دمشق هذه الايام ؟ وهل ان هذه الصراخات ممكن لها ان تتحول الى افعال انسانية تلغي الطابع الدراماتيكي لهذه الصراخات ؟

يبدو ان الماغوط يريد ان يقول شيئا :

« من اجلي كل هذه الابواب والنوافذ
وتركت نمي وحيدا في العراء
يسيح كخروف احمر في ازقة العروق الشرية ! »

وغالبا ما تقوده هذه الصراخات المتلاحقة الى انفلات بينه وبين قلمه للبحث عن الكلمة سبب :

« ان شمي يشم رائحة الحبر
كما يشم الذكر رائحة الانثى
ما ان يرى صفحة بيضاء
حتى يتوقف مرتعشا
كاللص امام نافذة مفتوحة » .

الان ، تلك التساؤلات ، وهذه الصراخات ، هي نتاج بحث الماغوط عن الشعر ، عن الكلمة ، عن اسر مؤقت ، عن حل آني يعطيه الراحة القليلة ، لان يعود ويقول بانه ليس سعيدا حتى وهو يبحث عن الكلمة ، فطالما حاول مرارا وتكرارا ان « ينفض قلمه من الحبر كما ينفض الخنجر الدم ليذهب الى مدينة اخرى » .

لكنه يفشل في هربه لانه سيظل كاللص الذي توقف امام نافذة مفتوحة .

هذه ظاهرة جيدة ، ينبغي التوقف عندها طويلا لمن يريد فهم الشعر ، او يريد التعاطف مع شعر محمد الماغوط .

ان الشعر هو كون المرء يدرك بصورة جذرية عبث العالم ، نفس الوقت الذي يعلن فيه ان هذا العالم عاقل ، ولا بد له من تغييره نحو الافضل ، ولذلك فان افعال التغيير تحمل معها تنبؤات الشاعر ، مواقف الشاعر من العالم هذا .

بيد ان الماغوط في اغلب قصائده المنشورة ضمن مجموعته « الفرح ليس مهنتي » يقف خارج منطقة الشعر . انه ينادي فقط ، يرفض فقط . لكن لماذا ... والى اين .. ! فهنا لا نجده الا قليلا في قصائده .

ان الماغوط يكتب الشعر في وقت يكاد يكون فيه خارج منطقة الشعر : انه مراقب ، ومراقب فقط ، لازقة دمشق ، للصحراء ، للشعب ، وان بدا وكأنه يجمع كلماته الى جانب كلمات السيد المسيح .

« في المدن يستعملون المراوح والمرطبات
اما في الصحراء ، فماذا يستعملون
غير انتظار العاصفة ؟
ولكن اين العاصفة ؟ »

ويبدو لي ان الماغوط يعرف عاصفة اخرى ، غير عاصفة الشعر الحقيقية لان عاصفته :

« مترددة وراء الافق البعيد
كالنبي امام عتبة الفندق » .

ليس الشعر الان ان نصف الصحراء والازقة والمدن والنساء ، بقدر ما يكون الشعر في هذه المرحلة موغلا في غابات الانسان ، فاتحا جرح الانسانية على اكثر من سؤال بانتظار اكثر من جواب .

الشعر الان ليس التوليف ما بين الحلم والواقع ، المستحيل والممكن ، انه الاحساس الذي يسري بين الجلد واللحم ، ويتوجب على الشاعر الامساك بتلك اللحظات الغنية ليعيد صياغتها من اجل حرية الانسان .

وفي هذا المضمار فان الماغوط اذ يؤكد لقارئ قصائده توقه وطموحه الى ان يكون شاعرا حقيقيا ، الا انه يعود ويتخلى قليلا ليقفز على الشعر ، فيجاوزه ، ليجد نفسه يتحدث عن مفارقات ، يتحدث عن اوجه تشابه بين ... وذاك ، بين العاصفة وبين النبي المترددة امام ابواب الفنادق ، انه في بعض قصائده كمن يكرر تعابير انشائية ذات طعم حلو في اغلب الاحيان .

بيد ان هذا يجب ان لا يجرنا للافتراض بان الماغوط لا يمتلك ادواته التعبيرية الخاصة ، او انه لا يمتلك احساسات الغضب التي تفر الاشياء منه بلحظة ، كما تتسرب رمال الصحراء من بين الاصابع . بسبب من انه يظل يبحث عن الحرية فهو قد حلم احلاما كثيرة ، لكنه حين حلم بالحرية وجد الحراب تطوق عنقه « كلا الصباح » ، ولهذا فهو يخبر قراء شعره انه سيكون داخل المكتبات العامة ، في اوروبا ، على الخرائط « نوم اليتيم على الارصفة » حيث فمه يلامس اكثر من نهر ودموعه تسيل من قارة الى قارة .

حسنا ، اذا كان الماغوط يبحث عن الحرية ، فوجد عنقه مطوقة بالحراب ، افلا يكون كسر الحراب تطويرا لتلك الحرية ، بدل ان يكون « قيمة » مؤكدة في الذهن فقط ، في الكتب الموجودة في المكتبات العامة ؟

يقول هيجل : « ان الحرية هي ادراك الضرورة » . ومن يدرك الضرورة بعد فهمها واستيعابها ، ثم محاولة مواصلة رحلة الفهم والاستيعاب من خلال افعاله الحرة ، فانه يكون فرحا ، بمنهج الحب والانسان ، يكون جديرا موضوعيا لكل الظروف والمواقف الارهابية : انه يكون فرحا بقدر ما يتحقق من خلاله افعال الثورية . وهكذا نصل الى ان الحرية التي هي اختيار كامل للثورة تعني ان يكون الانسان فرحا .

ولكن اذا كنا نطالب الماغوط بموجب هذه الافتراضات ، فان من حقه ايضا ان يقول ايضا : انا ارفض واقعي ، ارفض العقلية البدوية ، ارفض الانماط المزيفة للمثقفين والسياسيين الذين يجيدون فقط اضحاك الجمهور ، وبهذا فانا قد تعانقت مع حريتي ؟

مؤكد ان الماغوط تعلم ان يرفض ، انه يقول « وهو هنا يتحدث عن الثورة » :

« ساخلص وابانا تحت مصابيح الشارع
واروي لها كل شيء
...مي واسامي و...
حتى يدب النعاس في اجفانها
و... رويدا رويدا
كالحدأة امام الموقد
ولكن ..
اذا لم تأت
سأعصر شرايين كالمراهق
سأمد ... على مداه
المتحررر في ذروة ...

وليلد من الله
وليبدد هذه الآية »

ان ... عندما نتحدث عن هذا فليس - كما يقول - ... خاص به ، بل لان الثورة نفسها قد ...

« ... رائحة الحبر
... بالورد
رائحة الاوطان على ثياب المسافرين
... شعري كل صباح
... احمل ثيابي
... كالعاشق في موعده الاول
انتظارها
انتظار الثورة التي ...
انتظارها » .

... من هنا فانه يرفض وقته :

« اني ارتع سائس كلمة
فالموت او الرحيل
ولكن ..
... الاشياء عتيقة
... ايها النجوم
... الوطن
... حتى بالوحل »

من ناحية المبدأ فان رفض « الثورة » التي ... ، ورفض الوطن الذي لا يستحق ان يكون وطنا او قارة ، مسألة مشروعة ، شرط ان يكون ذلك « الثورة » ضد الجماهير ، وشرط ان يكون ذلك الوطن مليئا بالعملاء والجواسيس والزوقة الذين يصادرون الحرية .

لكن الافتراض الوحيد والمنطقي هنا هو : ان الثورة موجودة ، وهي ان تعرضت الى بعض النكسات ، فهذا لا يعني على الاطلاق انها سوف لن تأتي ، ولهذا فالماغوط مخير بين ان ينتظر ثورة « مثالية » في كل شيء ، وبين ثورة نابعة من هذا الوطن الذي رصفه وحل وقذارة، تحمل معها سمات اكيدة لوطن حر لا يخضع لاستغلال البرجوازيين ، ولا يكون سوطا على الحرية .

من هنا فان الماغوط مطالب بسبب بحثه عن حريته الصلوبة ان يكون مع هذه الثورة ، فهي الامكان . اما انتظار ثورة على « الكتب » ثورة لا يعرفها الا الغارقون حد ذقونهم في حلم البرجوازي فانها سوف لا تأتي على الاطلاق : انها وهم .

ان الرفض ليس كل شيء . كما ان الكلام عن الرفض وعن الحرية لا يمكنه ان يخلق شاعرا . بقدر ما تلتحم مواقف الرفض بمواقف الثورة فان الشعر يصبح كائنا لذاته ، من اجل الانسان وحريته .

ماذا يعني ان اقول ان وطني قذر جدا فيما اصل اسرائيل مثلا احتلال الجولان وفلسطين متعبة كلية ؟

وماذا يعني قولي (لا) عندما اكون واقفا خلف زجاجة سميكة تحجب عني صوت الشارع ؟

في ظني ان هذا الرفض ليس عدميا وحسب ولكنه خطر ايضا اذ يجعل من الانسان اسير احلامه الذاتية المغرقة في الحزن واليأس والفوضى.

ان قصائد مقاتلة ممكنها ان توجد ، وتفعل فعل البندقية ، عندما نعرف مقدما لمن نتوجه بها .

ان هذه الملاحظات ليست اساءة للماغوط ، بل هي ايضا محاولة للحوار معه من اجل شعر جيد .

● البرجوازي الصغير ... مثقفاً

غالبا ما يرحل الكاتب ، او الشاعر ، مع القافلة باتجاه تحطيم العالم القديم ، عالم العلاقات المتخلفة ، التي صاغها النظام في خدمته اساسا ، ليؤكد ، او يتحدث عن صورة جديدة ، لعالم جديد ، لم يتأكد بعد ، رغم انه يبدو واضحا في ذهن الكاتب ، او الشاعر .

بيد ان مسألة ايصال ما في الذهن الى المتلقي ، القارىء ، تكون غاية في الصعوبة ، وفي احايين كثيرة لا يستطيع بعض الكتاب تنفيذ هذه المهمة ، فيقعون ضحية القصور والتخلف والعجز .

ان الاديب ، الكاتب او الشاعر ، في معظم البلدان النامية ، هو من نتاج البرجوازية الصغيرة . وهو عندما يقبل الثورة ، كموقف من العالم ، فانه يظل ، مع ذلك برجوازيا صغيرا داخل الثورة نفسها : انه من الصعوبة بمكان التحول الى فعل الثورة نفسها ، طالما ان الاديب البرجوازي الصغير لم يستطع التخلص من جلده الطبقي ، ذلك ان اختيار الثورة « فكريا » ليس الا قفزة من قفزات البرجوازي الصغير الاعتيادية في مجال حياته اليومية . على ان « قفزته » هذه المرة ، وهو يتعامل مع الثورة ، ربما تؤدي به الى فقدان ساقيه ان لم نقل رأسه .

ان البرجوازي الصغير بقدر ما هو ثوري ولحظي ، فانه ايضا مختال وجبان ، برغماتي ، وعلى استعداد لايراد مختلف « الفذلكات » عن الانسان والثورة والثقافة .

ولهذا فانه مطالب ان يحول اختياراته الثورية الى افعال انسانية عبر انشطة الثورة ذاتها ، من داخل الثورة نفسها : الايمان بالثورة ، والاعتقاد بها ، كحل لكل مشاكل الانسان ، ومن ضمنها مشاكل الانسان البرجوازي الصغير ، ورفع هذا الايمان ، وذلك الاعتقاد ، الى حيز العمل الثوري نفسه ، الذي هو اساسا تجسد افكار الثورة على مستوى التطبيق والممكن .

ثمة مسألة يمكن اثارتها هنا : ان البرجوازي الصغير ، نتاج ظروف تاريخية واقتصادية ، صاغته كيما يكون مسمارا ، متميز ، في الوضع الطبقي لتلك الفئة الاجتماعية ، وبناء على هذا فان « خيانته » لطبقته ، وهو ينضم الى الثورة، انما هي ، اساسا ، تخضع لتمردات عبثية ، فوضوية احيانا ، لا يمكن لها ان ترقى الى الثورة وافعالها .

يبدو لنا ان هذا الرأي ، رغم انه يتمسك بروح البحث العلمي ، الا انه تبريري ايضا ، وجامد كذلك ، يتكفىء على ذاته وينغلق ولا يؤمن في مكانات الحياة . وهو على عكس الرأي المناقض له ، ايديولوجيا، والذي يدعو « الكل » للانضواء داخل الثورة بدون تمييز ، بين ذلك الانتماء ، وانتماء آخر ، الانتماء الطبقي طبعا .

ان عصرنا الحالي يمكن ان تطبق عليه قوانين: الممكن والاحتمال . اي انه ، في احكامه ، العصر الذي يختلف ، كثيرا ، عن احكام القرن التاسع عشر ، ومن هنا نجد ان اية صيغة تهدف الى احداث علاقة كاثوليكية بين البرجوازي الصغير، كفرد ، وبين طبقته ، انما هي رؤية ناقصة وغير متفهمة لآفاق العصر الحديث .

ثمة امثلة كثيرة يمكنها ان توضح لنا هذا الذي قلناه الان : في زمن المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي انضم عشرات المثقفين والادباء الى المقاومة الفرنسية ، وبعضهم اشترك في حرب التحرير ، بينما كان هناك آخرون ، على قلتهم، تعاونوا مع النازيين .

ويوجد الان ثوار عديدون ، في بولونيا والوطن العربي وفي الهند الصينية ، هم اساسا من فئة البرجوازية الصغيرة ، لكنهم قاموا ، ويقومون اليوم ، بافعال بطولية رائعة تهدف الى تعميق محتوى الثورة العالمية المعاصرة .

وبعبارة اخرى نقول : ان البرجوازية الصغيرة ككتلة اجتماعية ، من الممكن ان تقف ضد الثورة في مراحلها ، لكن البرجوازي الصغير ، الفرد ، ليس ممكنا ان يمر من خرمعنا القانون : اي انه من الممكن جدا ان يكون الفرد البرجوازي الصغير، الكاتب ، الاديب ، خارج طبقته ويسترشد بالفكر الثوري العلمي ، ويبدأ باللجوء الى الناس الفقراء ليتعلم منهم شيئا جديدا ، يعيده اليهم مصاغا باسلوب جديد ، يمكنه من ان يتحول الى فعل ثوري : الكلمة + الفعل الثوري (الانتماء تنظيميا للثورة) . لقد نبه الى هذه الناحية معلمو النظرية الثورية الماركسية اللينينية ، ودعوا الى الاهتمام بالمثقفين والادباء ومعاملتهم بشكل او بآخر يتيح لهم تنظيف افكارهم على هدى افكار الثورة .

عن هذه المسألة قال ماوتسي تونغ :

« وباستمرار الممارسة العملية الاجتماعية تتكرر مرارا الاشياء التي تثير احاسيس وانطباعات في حواس الانسان في مجرى ممارسته العملية ، وعندئذ تحدث في ذهن الانسان تبدل مفاجىء (قفزة) في عملية المعرفة وتتكون المفاهيم » (اربع مقولات فلسفية ، دار النشر باللغات الاجنبية ، بكين ١٩٦٨ - ...) .

وبهذا يتمكن الاديب البرجوازي الصغير ان ينتزع عالمه ، طبقته ، نزواته ، نزوعه الى التوحد والاغتراب عن الثورة ، ليضع نفسه في مناطق اللهب الثوري ، ويحقق ارقى افعال الانسان الثوري : اختيار الثورة عبر اداتها الثورية .

□ ج . ل

الناقة المستباحة

للشاعر

احمد دحبور

تركض الناقة المستباحه
فوق جرح البكارة ، والفاتحين القدامى
فوق رجل الجحيم المدلاة ، فوق المناحه
فوق خوف اليتامى
تركض الناقة المستباحه
فوق ثلج الرياء ، وجمر الصراحه
وتضوع الصدى نخوة وانتقاما
فتغطي كوى الرمل واحه

★

قاطعا كل هذي المساحه
من حزيران حتى القناة
جئت ،
كان غذائي سنامي النحيل
ومعي حاجيات الرحيل :
دفتري ، والدموع ، وجمر الصراحه
(لا تمسوا دموعي فتطفىء جمر الصراحه)
جئت من غابة الذكريات
قاطرا ما يسمى حياة
قاطعا كل هذي المساحه
من حزيران حتى القناة

★

سيدي.. ورأيت الربوع
شحنت بالدنانير ، واللحم ، والمقريات
ورأيت الدموع
دررا ، في المزاد تباع، التقيت الشرارة
يمنحون السعادة ، والمنتهى، والهبات
وعبرت الجموع
(كان في الارض جوع)
جاع طفل فمات
فامتطيت الدموع، وصحت : الرجوع
الرجوع

★

- الريح الجائعة الريح النباحه
جئت في الساحه
هي ذي تذري الفلوات
هي ذي تتداخل في الاصوات
وتهدد جامحة مجتاحه
قصر الضحكات
فيهرّ زجاج نوافذه اللواحه
- يا للريح النباحه
- نباحة يا سيدي
لكنها جائعة ،
والجوع وحش معتد

★

ايها الجمل المتعب المستباح
من هنا مرت الناقة المستباحه
كانت الريح مثقلة بالجراح
والصدى بالمناحه
فتقصّ المساحه
ادرك الناقة المستباحه

★

ربما عبر عيني بعير وليد بفيض الصباح

نشيد من ثلاثة ، بضمها عنوان :
« اعترافات حزيران - ١٩٦٧ » .

الهدف

مجلد السنة الأولى

٥٢ عدداً في مجلد أنيق

٢٦ تموز ١٩٦٩
٢٦ تموز ١٩٧٠

مع فهرس يسجل محتويات المجلد كاملة

٢٥ ليرة عدا أجور البريد

اطلبه من الادارة
ص.ب ٢١٢ بيروت

صدر عن منشورات "مواقف" بالتعاون
مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

شهادة الاطفال في زمن الحرب

اعداد : منى السعودي
الاخراج الفني : فلاديمير تماري
توزيع دار الطليعة
اطلب نسختك على : ص.ب ١٤٨٩ - بيروت
الثمن ١٠ ل.ل